العدد (1741) السنة السابعة - الأربعاء (10) آذار 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

هـل حـان هبوطنـا علـى الأرضـ لكـي نـرى حقائـق الواقع؟

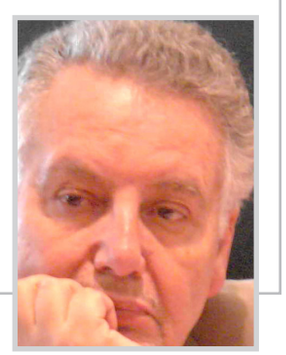

سوف يمرُّ زمن غير قصير حتى يتبين الباحث العربي حقيقة ما كان يجري في النصف الثاني من القرن العشرين، وخاصة فيما يتعلق بالخطوات السياسية المهمة وبالقرارات العسكرية، التي أدت إلى الحروب العربية مع إسرائيل. فرغم هذا الكم الهائل من الكتابات والأبحاث العربية حول هذين المحورين (السياسي والعسكري) إلا أن الحقيقة ما زالت خافية على كثير من الباحثين ومنهم – مثالاً لا حصراً – المفكر السياسي السوري الراحل ياسين الحافظ.

شاكر النابلسي

ماذا لولا الاستعمار والصهيونية؟!

يناقش ياسين الحافظ في كتابه "في المسالة القومية الديمقراطية، ١٩٧٣" أسباب فشل الوحدة المصرية – السورية في دراسة مطوّلة. ويكتشف القارئ بعد الانتهاء من قراءة هذه الدراسة، أن الاستعمار والصهيونية هما سبب فشل هذه الوحدة، علماً بأن الحافظ كان من المفكرين العقلانيين الواقعيين والواضحين في رؤاهم السياسية. ولكن الحافظ لم يحاول في هذه الدراسة، أن يبين لنا جانب القصور الإداري الذاتي الناتج عن نقص في العلم والخبرة الإدارية لإدارة مشروع وحدة ضخم كهذا، من قِبَل زعيم لم يكن له باع في السياسة، ولا ذراع في الإدارة. كذلك لم يُعرِّج بنا الحافظ على دراسة الصلاحيات الدستورية المطلقة، التي توَّجت عبد الناصر ملكاً ذا حق إلهي على سوريا ومصر، له صلاحيات ملوك القرون الوسطى المتمتعين بالحق الإلهي، والذين كانوا يضمون بين أيديهم السلطتين التشريعية والتنفيذية، كما كان ينصُّ دستور دولة الوحدة المصرية – السورية آنذاك.

عائقنا التخلف وليس الفقر

ولكن هناك بعض الباحثين القلائل جداً من وضع إصبعه على جرحنا الحقيقي، وشخَّص لنا علتنا، وقال بأنه في ظل موجة العقلانية التي بدأت تجتاح العالم العربي في نهاية التسعينات، ونحن نودِّع القرن العشرين الذي انفجرت في نهايته ثورة المعلومات، وشهدت فيه البشرية ثورة التكنولوجيا، فإن موطن الداء الحقيقي الذي يُعيقنا، هو داء التخلف، وليس الفقر.

فبعضنا أغنياء متخلفون، ومعظمنا فقراء متخلفون.

إذن: فكلنا متخلفون، وليس كلنا فقراء.

والفقر لا يعني دائماً التخلف، كما أن الغنى لا يعني دائماً التقدم.

فبلد كالهند مثلاً، تُعدُّ من الفقراء المتقدمين علمياً.

فهناك تقدم مع الفقر، ولكن لا تقدم مع التخلف.

ولم تتوحَّد وتتقدم أمريكا – مثلاً – إلا بالنور الذي جاء به الأوروبيون من أوروبا، ذات التنوير، والإصلاح الديني، والثورة الصناعية، والثورة العلمية، والاكتشافات المذهلة، في القرن الثامن عشر، والقرن التاسع عشر. وما الوحدة التي حققتها أوروبا في نهاية القرن العشرين إلا نتيجة لهذا كله. وبالطبع، نتيجة لعصر ثورة التكنولوجيا والمعلومات، ولم تأتِ من فراغ.

أما نحن، فما زلنا – كما قال حبيبَ حداد "الوحدة العربية إلى أين؟" – "مجتمعات متخلفة، وشعوبنا مذلة مستعبدة، تحكمها أنظمة استبدادية فردية شمولية، وقوانا وحركاتنا السياسية متخلفة وقاصرة. وأن التعرُّف على حقائق هذا الواقع ليس دافعاً لليأس والإحباط، بل إنه يمثل نقطة البداية الجادة والسليمة، لتجاوز هذا الواقع، ومواصلة مسيرة الوحدة القومية."

الستينيات: عقد الهزائم العربية

لا شك بأن محور الوحدة العربية، قد احتل جزءاً كبيراً من مساحة الفكر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين. ولا شك أن قيام وسقوط الوحدة المصرية – السورية، كان مع هزيمة ١٩٦٧ من أهم المحاور السياسية العربية. وأن الستينيات من القرن الماضي التي شهدت هزيمتين كبيرتين للعرب: في وحدتهم عام ١٩٦١، وفي هزيمتهم العسكرية عام ١٩٦٧ كانتا أسوأ فترات التاريخ العربي المعاصر. ومن هنا، انصبَّ الاهتمام على هاتين الكارثتين اللتين كانتا تُفسَّر منطلقات ومكونات العقل السياسي والاجتماعي العربي. فلا شك أن غياب الأسلوب العلمي الذي يقوم على أساس من الواقع، وخلطنا بين الشعار والواقع، كان من أسباب هزائمنا.

قُبّعات لا تناسبنا!

ويرى بعض الباحثين، أن تبنّي الفكر العربي في هذه المرحلة للفكر الغربي الذي وُضع – خصيصاً – لحاجة المجتمع الغربي، وكحلول لمشكلات هذا المجتمع ومتطلباته، ومحاولة تقييف Alteration هذا الفكر، لكي يكون ملائماً للمجتمع العربي ومشكلاته، قد أعاق حرية الفكر العربي. وبالتالي – وكما يقول المفكر السوري/ مُطاع صفدي – دخل هذا الفكر في "عصر البدائل، واعتزل الواقع وقواه الجماهيرية. ووصل الأمر به أخيراً إلى القبول بإلغاء ذاته، عندما قنع بمهمة النقل، والترجمة العقائدية، عن عقائديات التجارب الإنسانية الأخرى السابقة، أو الموازية، والمجاورة، حتى أصبح الفكر السياسي العربي تعاطياً مع الأدلجة بمختلف أدواتها."

جناية الإيديولوجيا العربية

وزادت الإيديولوجيا العربية الطين بلّة. وكانت جناية على المستقبل العربي.

فلقد أضرَّت الإيديولوجيا بالعرب ضرراً كبيراً، ووقفت حاجزاً في وجه تقدمهم. وعلى سبيل المثال، فعندما تمَّ الربط بين الوحدة والإيديولوجيا ربطاً تاماً، متمثلةً بالاشتراكية العربية، التي طُرحت على مستوى واسع في العهد الناصري، وفي الستينيات على وجه الخصوص. فلا تحققت الاشتراكية ولا تحققت الوحدة. وذهبت الاشتراكية أدراج الرياح. وأصبحت من الأدبيات التاريخية التي تُقرأ ولا تُطبَّق، وتُهمس ولا تُلمس. كما عادت الوحدة حلماً من الأحلام، وابتعدت عن أرض الواقع، لتصبح طيفاً من الأطياف، عندما أقيم نوعٌ من التلازم الأيديولوجي بين الوحدة والاشتراكية بصورة تسمح بتبرير الهدف في تحقيق كليهما معاً، بدعوى أن كل واحدة مشروطة بالأخرى.

كما أن ارتباك جميع التيارات الإيديولوجية، وعدم وضوح رؤيتها، وفشلها، عندما دخلت أفكارها حيز التطبيق، كان سبب هذا الضياع وهذه الحيرة.

كذلك، فإن غياب النظرية العلمية الجامعة، يعني أن الفشل الذي يلقاه العمل العربي، قد يؤدي ليس فقط إلى تدمير الأمل والثقة بمستقبل عربي، بل إلى الشعور بخلل ذاتي في الهوية القومية العربية نفسها، وإلى تحويل فكرة دولة القوة إلى قصد غير واقعي، وإلى أسطورة.

هل كان التراث العربي عائقاً؟

يظن بعض الباحثين، أن من عوائق التقدم العربي اعتماد فكره على مرجعيات تراثية، لا تفيد شيئاً في العصر الحديث، حيث اختلفت مقاييس المنجزات السياسية التي تخلَّصت من العصبيات في الماضي. ولم يعد لحساب العصبيات في هذا العصر حساب. ولكن أصبح الحساب الأكبر لدفاتر الحساب نفسها، وما تقوله من أرقام، وما تشير إليه من مصالح. والفكر العربي لا يزال يردد النمط الفكري السابق، ويعيش من تراث فكري، دللت الأحداث على إفلاسه.

هل نحن أمة؟

يتساءل بعضهم قائلاً:

هل القومية العربية عائق من عوائق تقدمنا؟

لقد أصبحت المسألة القومية في مأزق، من خلال مأزق الفكر القومي نفسه. وأن مأزق الفكر، نبع من قفزة فوق السؤال المهم:

من نحن؟

كما تكوَّن مأزق الفكر من الإجابة المتسرعة عن هذا السؤال، بالقول:

نحن أمة !

بينما كان السؤال يستدعي جواباً عميقاً، يستند إلى دراسة طويلة، تتناول التركيب الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، واكتشاف النسق الخاص بالأمة العربية، والديناميات التي تحكم حركة المجتمع العربي، وتحدد مستوى تطوره، ومستقبل هذا التطور في الظروف المتغيرة.

الحاجة إلى الهبوط على الأرض

إن الأحلام السياسية الرومانسية، كانت مرحلة من المراحل التي عشناها بعد الاستقلال السياسي، في النصف الثاني من القرن الماضي. ونحن اليوم في أشد الحاجة للهبوط على الأرض، وتلمّس العوامل الواقعية والفعلية لقوتنا، وتضامننا، ووحدتنا السياسية. وسنجد على الأرض التي سنهبط عليها عدة حقائق، كنا غائبين عنها في متاهات الشعارات الرنانة، والخطب السياسية الطنّانة والمخدرة للعقل. ومن هذه الحقائق التي يجب علينا أن ندركها، أن المصالح الاقتصادية، هي التي استطاعت بالدرجة الأولى أن تُثبِّت أقدام أول وحدة عربية قامت واستمرت في الجزيرة العربية متمثلة بالمملكة العربية السعودية في العام ١٩٣٢. فقد تمثلت المصالح الاقتصادية في البداية في حاجة نجد إلى ذهب الحجاز، الذي كان يأتيها عن طريق الحج والعمرة حتى الستينيات من القرن الماضي، ثم حاجة الحجاز إلى ذهب نجد الذي جاءها من البترول بعد ذلك. إضافة إلى أن الحجاز وسواحله، كانت على درجة كبيرة من الأهمية التجارية. كما كان الحجاز على مدار التاريخ مركزاً للتجارة بين الشمال والجنوب بدءاً من إيلاف قريش ورحلة الشتاء والصيف.

كذلك، فالرغبة في إزالة تضارب المصالح بين البدو والحضر في المثال السعودي، أدى إلى نمو تيار وطني موحد. ومما أدى كذلك إلى نمو هذا التيار، الرغبة في وجود سلطة مركزية بين الحضر بشكل خاص، ترعى مصالحهم، وتثبت الأمن والسلم الضروريين لسير وازدهار الحياة الاقتصادية في بلاد نجد ومن ثم الحجاز، الذي كان يعاني من الاضطراب الأمني، والفوضى، وقطع الطرق التجارية، ويتأثر اقتصادياً من جرّاء ذلك، فيما لو علمنا أن مورد الحجاز الرئيسي المالي قبل اكتشاف النفط، كان يعتمد بالدرجة الأولى على مواسم الحج والعمرة والزيارة، وخلاف ذلك. وكانت هذه المواسم مهددة بسبب غارات البدو على قوافل الحجيج، مما كان يهدد بالتالي الوضع الاقتصادي الحجازي ويقلقه، والذي لم يستطع الهاشميون، ومن قبلهم العثمانيون، أن يقطعوا دابره في الماضي، ويرسّخوا الأمن، وهو ما فعله السعوديون. وفيما لو علمنا أيضاً أن القوافل التجارية بين نجد والعراق وبلاد الشام شمالاً، واليمن جنوباً، كانت طرقها مهددة باستمرار بغارات البدو وقطّاع الطرق، الذين لم يقدر عليهم أمراء نجد المتنازعين قبل قيام الدولة السعودية. ومن هنا يتبين لنا، أن العامل الاقتصادي، كان الدافع الأساسي لوحدة نجد والحجاز في ١٩٣٢.

مثال آخر على الأرض

والمثال الآخر الذي نشاهده على الأرض عندما نهبط عليها ونرى الواقع على حقيقته، هو الوحدة العربية الأخرى، التي قامت في العام ١٩٧١ متمثلةً في دولة الإمارات العربية المتحدة وفي اليمن بين الشمال والجنوب عام ١٩٩٠. وتتمثل المصالح الاقتصادية هنا، في حاجة الإمارات الصغيرة غير المنتجة للبترول (الشارقة، عجمان، أم القيوين، رأس الخيمة، والفجيرة) إلى ذهب الإمارات المنتجة للبترول (أبو ظبي، ودبي). كما تتمثل في اليمن في حاجة الشمال اليمني إلى الجنوب اليمني، وعلاقته التجارية مع العالم الخارجي، من خلال ميناء عدن البحري المهم.

وحاجة الفقير الصغير الضعيف إلى الغني الكبير القوي في هذه الأمثلة العربية، يُحيلنا إلى حقيقة أرضية وواقعية، وهي أن الحاجة الدافعة إلى الوحدة، لا تتم إلا في مجتمع بدوي بسيط، ومجتمع تجاري خالٍ من الأدلجة، وعقدة الزعامات المتزاحمة.

وانـتـصـــرت إرادة العـــراقيـــين

حازم مبيضين

بغض النظر عن النتائج التي ستسفر عنها الانتخابات التشريعية الثانية في عراق ما بعد صدام حسين،فان المهم والمفرح هو حجم مشاركة أطياف الشعب العراقي كافة في هذه التجربة التي يخوضها عراقيون في الخمسينات من أعمارهم للمرة الاولى،وهم على ثقة بقيمة ورقة الاقتراع التي يلقونها في الصناديق،ويتحملون في سبيل ذلك مخاطرة التعرض للهجمات الارهابية،التي توعدهم بها تنظيم القاعدة الرافض لاستقرار العراق،وتلك التي نفذها مناهضو العملية السياسية دون أن يجرأوا على الإفصاح عن أنفسهم أو تبني تلك الهجمات.

سواء فازت قائمة ائتلاف دولة القانون أو قائمة العراقية،أو تعادلتا،أو تفوقت عليهما قائمة أخرى،فان المهم أن شجاعة الناخبين العراقيين هزمت ظلامية الإرهابيين،وأن العراقيين تحدوا تهديداتهم،وأثبتوا أن مشاركتهم تؤكد اختيارهم بناء مستقبلهم عبر العملية السياسية،وأن العراق يتجه لأن يكون " واحة ديمقراطية وسط صحراء من الشمولية والديكتاتورية "،وسواء تشكلت الحكومة الجديدة من قائمة واحدة تحظى بالأغلبية،أو تشكلت من تحالف أكثر من قوة سياسية،فان العراقيين الذين انتخبوها في ظل ظروف ضغط غير عادية،يستحقون منها العمل على إنصافهم من سنوات القهر والفوضى التي عاشوها،ويستحقون منها بذل جهود غير اعتيادية للعبور بالعراق إلى مرحلة استقرار وبناء وأمن وأمان.

في عمان البعيدة والقريبة من بغداد في آن معاً،كان العراقيون على موعد مع مستقبل بلدهم،ولم يضيعوا الفرصة،ولم يفرطوا فيها،وكان رائعاً مشاهدة عجوز على كرسي متحرك،لا يستطيع الكلام،لكنه يستطيع الوصول إلى المركز الانتخابي ليمارس حقه في الاقتراع،وهو على ثقة بأنه يوازي حقه في الحياة والفرح والامل والطمأنينة،وكان جميلاً مشاهدة عوائل وصلت مجتمعة،وأطفالها يرتدون ملابس الأعياد،ويتعلمون الحرف الأول في الديمقراطية التي افتقدها آباؤهم لعقود طوال من حكم الحزب الواحد،والقائد الضرورة،والعائلة الحاكمة بقوة البطش والتسلط و(الزعرنه).

كردستان العراق كانت نجمة مضيئة في سماء التجربة الانتخابية العراقية،وفيها كما تناقلت الأنباء،كان الهدوء والتنافس الديمقراطي سيد الموقف،وكان جميلاً أن لايمارس حزب الاتحاد الوطني موقعه السلطوي لقمع منافسيه،ورضي بحسم صناديق الاقتراع،وهو بذلك يؤكد أن الشعب هو مصدر السلطات،وأن أيام نجاح الحاكم لمجرد أنه يحكم قد ولت إلى غير رجعة،وكان جميلاً أن يرأس ناشط مستقل وغير حزبي قائمة التحالف الحزبية في أربيل،وبما يؤكد ترسخ ثقافة الانتماء للوطن كقيمة تعلو وتتجاوز قيمة الانتماء الحزبي.

سنسمع من هنا وهناك انتقادات لسير العملية الانتخابية،ومهما كثرت تلك الانتقادات،ومهما كان قريباً أو بعيداً موقعها من الحقيقة،فأنها لن تؤثر في القناعة بأن العراق اجتاز مرحلة من تاريخه،ودخل (أو عاد) إلى التجربة الديمقراطية،وتداول السلطة سلمياً،والامتثال لرغبة المواطن باعتبارها أسمى وأكثر احتراماً من رغبات الحاكم بغض النظر عن من يكون،ولن يكون نقد العملية الانتخابية العراقية استثناءً،فقد اعتدنا في السنوات الأخيرة سماع رفض نتائج الانتخابات من الطرف الخاسر في أكثر من دولة،ومن بينها تلك التي خرجت من تحت عباءة الاتحاد السوفييتي،وحتى لو كانت تنتمي للقارة الاوروبية العريقة في قضايا الانتخاب والديمقراطيه.

بغض النظر عن الحكومة القادمة لتحكم العراق،فانها مجبرة على حكمه ديمقراطياً،ومجبرة على سماع رأي الشارع والاستجابة لمطالبه،وتقديم الخدمات المطلوبة،ولعل العراقيين يكتفون بذلك في المرحلة الراهنة.

عناصر القوة للحصول على المعارف والمعلومات

أوس عز الدين عباس

لا شك إن المعرفة تمكن الإنسان من إزالة كل عناصر التخلف والضعف في تعامله في الحياة وذلك من خلال أفعاله وأقواله وكل مواقفه كما إنها تجعله حذرا دائما من إي شيء مبهم . أما إذا كان الشخص فاقدا للمعرفة فانه لا يحصل على الأمر المهم لعدم تزوده بعناصر القوة...

ولهذا فان على الإنسان أن يتمتع بحسن التعامل مع الأشياء والأحداث بصورة تسهم في تنمية كل ما يحتاج إليه ليكون في موقع القوة . وإذا ما تمكن الإنسان من الاطلاع على أنواع العلوم في الفيزياء والرياضيات والطب والهندسة وكافة العلوم الأخرى فإنها سوف تجعله في موقع القوة خصوصا في تعامله مع الثروات بصورة تسهم في تنمية الوطن . فالتنمية عنصر قوة تجعل المواطن يعيش في الأمن الصحي والغذائي وفي الدفاع عن الوطن من الأعداء . أما إذا كان فاقداً لعنصر المعرفة فانه سوف يفقد الأمن لان العلم والمعرفة تزود الإنسان بالقابلية على حسن التعامل في معالجة المشاكل والازمات أما إذا كانت لاتوجد معرفة فانه سوف يكون سوء تعامل وبالتالي يفقد جميع أنواع الأمن . ويعتبر عنصر الحصول على المعلومات واحدا من أهم العناصر في إزالة أي ضعف لدى الإنسان تمنحه القوة على مصارعة المستحيل وتجعله في حذر دائم من كل عدو يحاول الاعتداء عليه مهما كان نوع العدو .... فهو يزيل الجانب السلبي في حياة الإنسان ويزوده بعناصر القوة وعناصر التنمية فيكون أكثر قوة في تحمل الصدمات والمشاكل والازمات . وحينما يتزود الإنسان بالمعارف الدينية تجعله في موقع القوة وعدم الوقوع في عصيان الله عز وجل لأنه يكون على حذر وحينما يتبع تعاليم الله تعالى فإنها تزوده بعناصر القوة أيضا وتحصنه من ضعف وتزيل عناصر الضعف عنه . وإذا ما اهمل هذه الجوانب فسوف يوقع نفسه في الضعف فيكون كائنا ضعيفا يستطيع أي إنسان أخر استغلاله فالله عز وجل حينما زود الإنسان بهذه المعارف أعطاه عناصر قوة تمكنه من الكشف عن الأمور لذلك يعتبر الإيمان واحدا من عناصر القوة للإنسان وعدم الإيمان من عناصر الضعف ... وأداء العبادات عنصر قوة وإهمالها عنصر ضعف والعمل بما أراده الله عز وجل في كل المعاملات وترك التعامل المحرم يعتبر عنصر قوة والتعامل بها عنصر ضعف . وكذلك الجانب النفسي حينما يطلع الإنسان على علم الأخلاق يتزود الإنسان بالمعرفة لمعرفة تأثير النفس والشيطان على الإنسان فحينما يطلع على تلك المعارف فانه يتزود بسلاح القوة لكي يستطيع التعامل مع النفس والشيطان ولكي يكون على حذر دائم وتكون نفسه قوية وغير ضعيفة . وهكذا بالنسبة إلى اطلاعه على الأمور التي تتعلق بالتربية فإنها تزوده بعناصر القوة في حسن التعامل مع كافة المكونات في المجتمع وفي نفس الوقت تجعله على حذر دائم من خلال ترك سوء التعامل مع الآخرين . بالإضافة إلى أن العلم يكشف للإنسان القضايا بخلاف الجهل فيجعله في حيرة وتردد وشك . وهكذا في الجانب الطبي والهندسي والزراعي ...ومن هنا نفهم قيمة المعلومات لذلك فلا بد للإنسان أن يبحث دائما عن العلوم والمعارف لأنه من الممكن لأي معلومة أن تساعده على إنقاذ نفسه من كل عدو مهما كان نوعه وتجعله ينمي نفسه فيكتسب عنصر القوة لئلا يتعرض إلى الاختراق من كل عدو ولذلك يظهر أهمية التركيز على المعارف والعلوم والمعلومات لأنها تجعل الإنسان في عنصر قوة دائما وتزيل جانب الضعف فيه . وفي بعض البلدان يكون هدفها الرئيسي والأساسي هو الحصول على العلوم والمعارف والمعلومات عن طريق الجامعات ومراكز الأبحاث والدراسات وبذلك كلما كان الاهتمام بهذا الجانب أكثر فانه يعبر عن وجود عنصر الوعي . ولذلك لابد أن تكون من أولويات أي نظام يريد أن يكتب لنفسه النجاح هو الاهتمام بالتربية والتعليم والتركيز على هذا الجانب وعقد المؤتمرات الدائمة في كيفية الاستفادة من العلوم والمعارف والمعلومات وجعل الإنسان محبا وعاشقا للعلوم وكيف تحولها إلى مشاريع عمل لان العلم هو الأساس لكل مشروع عمل . ومن هنا يظهر لنا أهمية تأهيل الكوادر التعليمية باستمرار وذلك من خلال تزويدهم بالخبرات واطلاعهم على الطرق الجديدة وفي كل وقت ومكان من اجل إيصال العلوم والمعارف والمعلومات إلى مجتمعهم وبلدهم والأجيال القادمة .